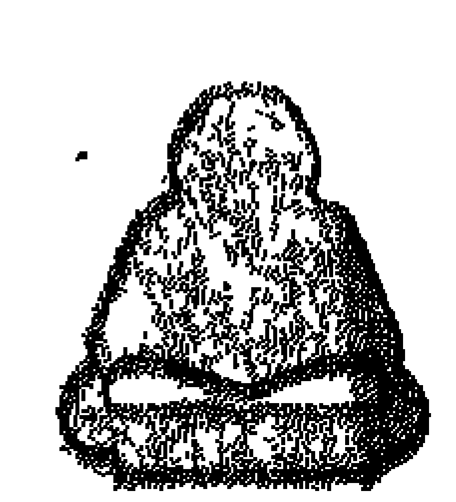
تراث الإنسانية

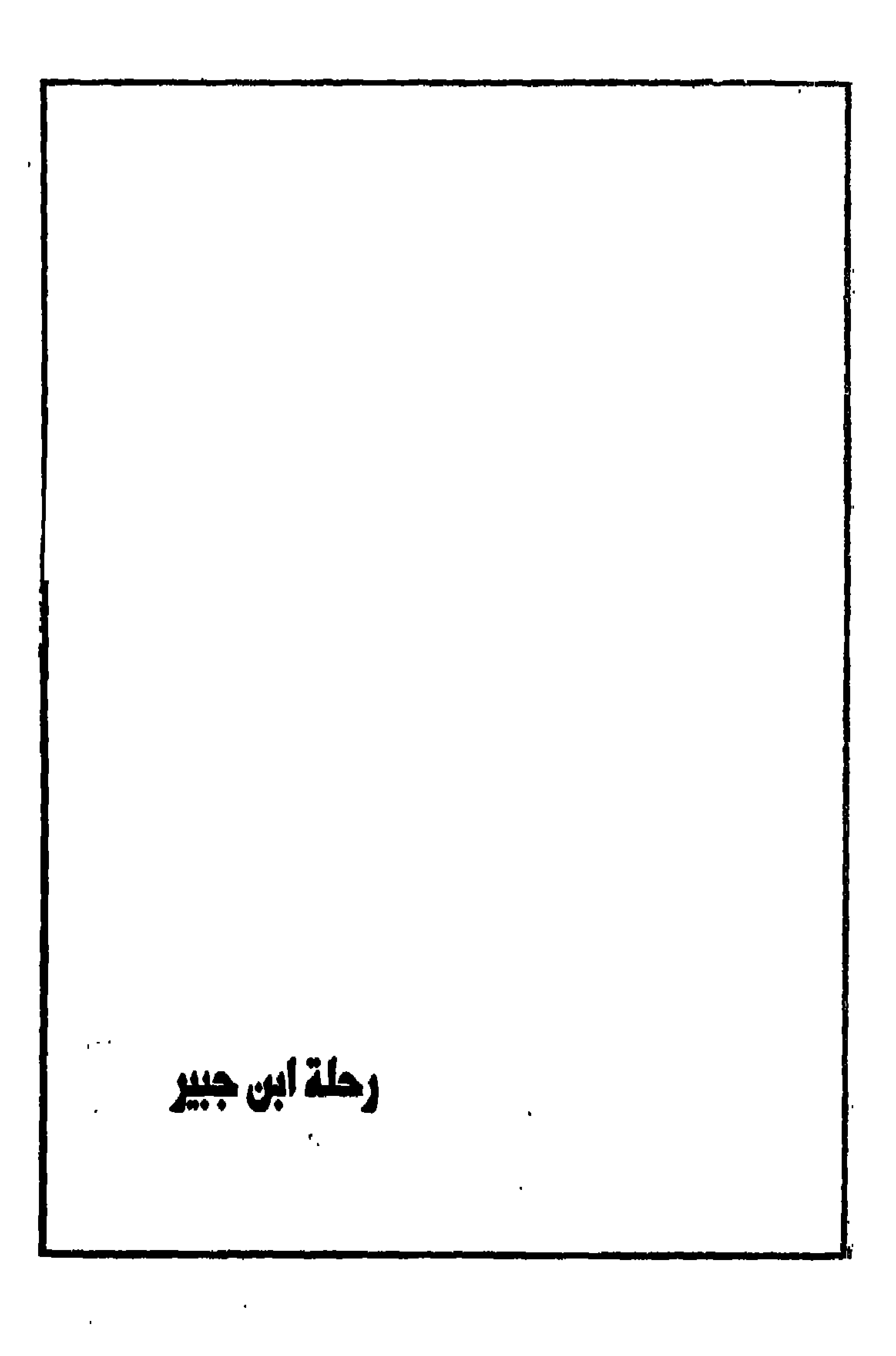
رحلة ابن جبير

د. حسين نصـار





الهيئة المصرية
العامة للكتاب


رحلة ابن جبير



مهرجان القراءة للجميع ٩٦

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(تراث الإنسانية)

الجهات المشتركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة الحكم المحلى

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ: هيئة الكتاب

الغلاف
الانجاز الطباعى والفنى

محمود الهندى

المشرف العام

د. سمير سرحان

رحلة ابن جبير

د. حسين نصار

علـى سـبيل التقديم ...

لأن المعرفة أهم من الثروة وأهم من القوة فى عالمنا المعاصر وهى الركيزة الأساسية فى بناء المجتمعات لمواكبـة عصر المعلومات .. من هنا كان مهرجان القراءة للجميع دلالة على الرغبة الطموحة فى تنمية عالم القراءة لدى الأسرة المصرية أطفالا وشبابا ورجالا ونساء ..

وكان صدور مكتبة الأسرة ضمن مهرجان القراءة للجميع منذ عام ١٩٩٤ إضافة بالغة الأهمية لهذا المهرجان كأضخم مشروع نشر لروائع الأدب العربى من أعمال فكرية وابداعية وأيضاً تراث الإنسانية الذى شكل مسيرة الحضارة الإنسانية مما يعتبر مواجهة حقيقية للأفكار المدمرة .

هكذا كانت مكتبة الأسرة نافذة مضيئة لشباب هذه الأمة على منافذ الثقافة الحقيقية فى الشرق والغرب وعلى ما انتجـته عبقريـة هـذه الأمـة عبر مسيرتهـا التنويرية والحضارية ..

ان مئات العناوين وملايين النسخ من أهم منابع الفكر والثقافة والإبداع التى تطرحها مكتبة الأسرة فى الأسواق بأسعار رمزية أثبتت التجربة أن الأيدى تتخاطفها وتنتظرها فى منافذ البيع ولدى باعة الصحف لهو مظهر حضارى رائع يشهد للمواطن المصرى بالجدية اللازمة والرغبة الأكيدة فى الإسهام فى ركب الحضارة الإنسانية ويأخذ مكانه اللائق بين الأمم فى عالم أصبحت السيادة فيه لمن يملك المعرفة وليس لمن يملك القوة .

د . سـمير سرحان

رحلة ابن جبير

د. حسين نصار

الأسرة

اجتمعت عوامل متعددة فجعلت الفتح العربى لبلاد المغرب يستغرق من الزمن أطول مما استغرقته الفتوح العربية الأخرى عادة . وبرغم ذلك ، أخذت جماعات من سكان البلاد الأصليين المعروفين بالبربر تعتنق الاسلام ، وتنخرط فى جنوده ، منذ الاتصالات الأولى بين العرب والبربر . واشتد اقبالهم على الاسلام فى عهد عمر بن عبد العزيز خاصة .

وفى أواخر العصر الأموى هاجرت جماعات من الخوارج الى المغرب ، بعد أن منوا بالهزائم المتوالية فى المشرق . فلقيت فى البربر مرتعاً خصيباً بثت فيه

مبادئها . ثم ولى طنجة عمر بن عبد الله المرادى ، فأساء السيرة ، وفرق بين المسلمين من العرب والبربر ، وتعصب على الأخيرين وظلمهم . ولم يرده عبيد الله بن الحبحاب والى المغرب عن سياسته الجائرة . والتقت العصبية مع الظلم ، مع مبادىء الخوارج ، فشبت الثورات واندلعت نيرانها من مكان الى آخر حتى عمت شمال افريقية كله ، بل تعدت جبل طارق ، وفرقت بين الأندلسيين وسلطت بعضهم على بعض .

وتحرج موقف العرب فى المغرب ، لقلة عددهم بالنظر الى البربر واحاطة هؤلاء بهم فى جميع الأرجاء فأسرع الخليفة هشام بن عبد الملك بتعبئة جيش من عرب الشام عدته ١٢٠٠٠ ، وبعثه لاخماد الثورة وانقاذ العرب، وأمر كل وال يمر به الجيش أن يمده بما استطاع . فبلغ عدد هذا الجيش عندما وصل الى طنجه ٣٠٫٠٠٠ رجل ، يقال ان ١٠٫٠٠٠ منهم كانوا من صلب بنى أمية ، والباقين من العرب الصرحاء . وكان على راس هذا الجيش كلثوم ابن عياض القشيرى ، وعلى طلائعه ابن عمه بلج بن بشر، وفى هذه الطلائع جندى يسمى عبد السلام ، من بنى كنانة من قريش .

وفتت الخلافات فى عضد الجيش العربى قبل أن يلتقى بالبربر . فلما التحموا منى بالهزيمة ، وقتل قائده ،

وفر أحياؤه . فكان فرار أهل افريقية ومصر منه الى تونس ، وفرار أهل الشام مع بلج الى سبتة ، على الطرف الشرقى من مضيق جبل طارق .

وخاف بلج أن يكر عليهم البربر فيستأصلوهم فعزم على الانتقال بمن معه الى الأندلس . فاستأذن واليها عبد الملك بن قطن ، فرفض خوفاً منهم . ولكن الثورات البربرية بالأندلس أجبرته على قبول ادخال بلج وأصحابه الى الأندلس للاستعانة بهم ، بعد أن أخذ رهائن منهم وشرط عليهم الا يقيموا بالأندلس أكثر من سنة واحدة . فدخلوا فى ذى القعدة ١٢٣ هـ (سبتمبر ٧٤١ م) عراة مجهدين . فكساهم عرب الأندلس . وكانت أول وقعة اشتركوا فيها بشذونة ، فى جنوب غرب الأندلس ، حيث هزموا البربر ، وغنموا أمتعتهم ودوابهم وأسلحتهم ، فأصلحوا أحوالهم . ثم عاونوا ابن قطن فى وقائعه بالبربر فى طليطلة ، وسط أسبانيا ، حتى أخمدوا جميع الثورات البربرية .

وكاد العام ينقضى ، فطلب عبد الملك بن قطن الى بلج بن بشر ان يخرج بأصحابه من الأندلس . فامتنع بلج . وثار بعبد الملك وتغلب عليه ، واستولى على السلطة فى ذى القعدة ١٢٤ هـ (سبتمبر ٧٤٢) ، واستقر أصحابه بالأندلس . فكان مقام عبد السلام الكنانى

بشذونة ، بالرغم من اقامة معظم الكنانيين بلطايطلة وضواحيها .

ولم يبين ما نعرفه من التاريخ المدة التى أقامها عبد السلام الكنانى بشذونة ، ولكنه اكتفى بسرد سلسة من الأبناء أعقبها ذلك الرجل ، وهى أحمد بن جبير بن سعيد بن جبير بن محمد بن عبد السلام . وذكر المؤرخون أن أحمد هذا كان من كتاب شاطبة ورؤسائها . ولسنا ندرى متى انتقلت الأسرة من شذونة الى شاطبة ، فى شرق اسبانيا ، ولا من الذى انتقل من الأسرة اليهنا . ولكن الواضح أن الأسرة خضعت لتغيير ، اذ بعدما كان الجد رجل سيف صار الابن رجل قلم .

« الرجـــــل »

وأعقب أحمد طفلا ، اختلف المؤرخون فى مولــده . فجعله لسان الدين بن الخطيب فى سنة ٥٣٩ هـ (١١٤٤م). وجعله المقرى ليلة السبت عاشر ربيع الأول سنة ٥٤٠ هـ (١١٤٥/٩/١) ، وارتضى معظم المؤرخين قول المقرى . واتفق المؤرخان على أن ذلك المولد كان ببلنسية ، على مصب نهر الوادى الكبير فى البحر الأبيض المتوسط ، ولكن آخرين قالوا انه ولد بشاطبة .

وعنى أحمد بابنه الذى سماه محــمداً ، وأراد أن يصوغه على مثاله ، فكان أول أستاذ له . ثم دفع بــه الى المعلمين المحترفين . فشغف الصبى بالعلم شغفاً ملك حواسه عليه ، ولم يفارقه طــوال حياته . فكان يسعى الى رجاله فى كل مكان حط به . فكان فى قائمة أساتذته من لقيه بسبتةومكة وبغداد وحــران ودمشـــق وغيرهـــا ، بالاضافة الى علماء الاندلس . وكانت العلوم التى عنى بها علوم الدين من فقه وحديث وقراءات ، وما اتصل بها من علوم اللغة والنحو والأدب .

وعندما بلغ السن التى يستطيع فيهـــا أن ينفـــرد بحياته ، ويضطلع بأعبائها ، احترف الكتابة . فعمـــل لبعض الأمراء من الموحدين الذين كانوا يسيطرون على الأندلس والمغرب فى ذلك الوقت . وكان أشهر من اتصل

به أبا سعيد عثمان بن عبد المؤمن ، الذى عقد له أبوه على ولاية سبتة وطنجة فى سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٤ م) ، وعين أبا محمد عبد الله بن سلمان وأبا عثمان سعيد بن ميمون الصنهاجي وزيرين له ، وأبا بكر بن طفيل القيسى ، الفيلسوف المشهور صاحب رسالة « حى بن يقظان » ، وأبا بكر بن حبيش كاتبين له . ولما خضعت غرناطة ، فى جنوب اسبانيا ، لسلطان الموحدين سنة ٥٥١ هـ (١١٥٦ م) ، أضافها عبد المؤمن الى ولاية ابنه أبى سعيد . ويبدو أن محمداً بدأ حياته العملية بالاتصال ببعض أقارب الأمير أبى سعيد بغرناطة . ثم ما لبث أن لفت اليه أنظار الأمير ، وتقرب اليه ، فضمه الى كتابه ، وتنقل معه بين غرناطة وسبتة .

ولم يشتغل محمد بالكتابة وحدها بل بالتدريس أيضاً ، وخاصة بعد رحلته الثانية الى الشرق . فقد انقطع مدة فى فاس للتحديث ورواية ما عنده وممارسة التصوف . وكان قد فعل شيئاً من ذلك فى المشرق فخلف بذلك تلاميذ له فى الغرب أشهرهم أحمد بن عبد المؤمن الشريشي شارح مقامات الحريرى ، وفى الشرق أشهرهم عبد الكريم بن عطاء الله ورشيد الدين بن العطار بالاسكندرية ، والحافظان أبو محمد المنذرى وأبو الحسين يحيى بن على القرشى بالقاهرة .

ووصف ابن الخطيب محمداً بأنه كان فاضلا ، نزيه الهمة ، سرى النفس ، كريم الأخلاق ، أنيق الطريقة، ذا فضل بديع وورع يحقق أعماله الصالحة . ووصفه صاحب الملتمس بأنه كان من أهل المروءات ، عاشقاً فى قضاء الحوائج والسعى فى حقوق الاخوان والمبادرة لايناس الغرباء . وتروى له أشعار تنصح بالتواضع ، وتنهى عن السفه ، وتحذر من الاغترار بالدنيا . ويظهر فى رحلته حرصه الشديد على زيارة أضرحة أعلام الدين ، ولقاء المشهورين من رجاله الذين عرفوا بالتقوى . كل ذلك جعل الرجل يميل الى الزهد . وأخذ هذا الميل يزداد الى أن جعله ينبذ الدنيا العريضة التى نالها بالأدب ، كما يقول المقرى ، ويخلد الى التصوف .

وتوفى محمد بن جبير فى الاسكندرية ، فى أثناء رحلته الثالثة الى المشرق ، فى يوم الأربعاء السابع أو التاسع والعشرين من شعبان سنة ٦١٤ هـ (٣٠ نوفمبر أو ٢ ديسمبر سنة ١٢١٧ م) أو السنة التى بعدها .

واشاد كل مترجم لمحمد بأدبه . فقد ذكر ابن الخطيب أنه قد جرت بينه وبين طائفة من أدباء عصره مخاطبات ظهرت فيها براعته . ولم يصل الينا شىء من رسائله التى انشأها بين يدى من اتصل بهم من أمراء ولكن ابن الخطيب قال : « نثره بديع ، وكلامه المرسل سهل

حسن » ، وقال أيضاً : « له ترسل بديع وحكم مستطابة وروى بعض هذه الحكم ، فكشف أن كاتبها جارى كتاب عصره فى التزام السجع ، والقصير الفقرات منه خاصة . ولعل ذلك راجع الى طبيعة الحكم التى يستحب فيها القصر والتنغيم ليسهل حفظها ويكثر ترديدها . كذلك أكثر من الجناس تامه وناقصه . ونمثل لحكمه بقوله : « ان شرف الانسان ، فبشرف واحسان ، وان فاق ، فبفضل وارفاق . ينبغى أن يحفظ الانسان لسانه ، كما يحفظ الجفن انسانه ، فرب كلمة تقال تحدث عثرة لا تقال . كم كست فلتات الألسنة الحداد ، من ورائها ملابس حداد . نحن فى زمان لا يحصل فيه نفاق ، الا من عامل بالنفاق » .

ولما كان ذوق العصر يعجب بهذه الزخارف ويرى فيها الأدب الحق والبلاغة القصوى ، فقد أعجب الناس بما كتبه محمد وحكموا له بالتقدم . وبالرغم من ذلك لم يتبع هذه الطريقة فى تدوين رحلته غير فقرات قليلة وقصيرة منها ، ثم ارسل سائرها ارسالا .

وكان محمد شاعراً غزير الانتاج ايضاً . وقد ذكر المؤرخون انه مدح من اتصل بهم من الموحدين ، فالمرجح اذن أن ذلك كان من أول ما نظم . ولم يصل الينا شىء من ذلك المدح ، ولكن الرجل أعجب بصلاح الدين الأيوبى منذ وطئت قدماه ارض مصر ، وعثر فى كل مكان حل به على اثر من آثاره ، دال على عدله وحبه

لرعيته والمسلمين عامة وتيسيره على الحجاج فنظم فيه مدائح وصل الينا بعضها .

وربما كان من أوائل شعره ايضاً ما نظمه فى ذم الفلسفة والفلاسفة ، وتقبح آرائهم ، واتهامهم بالخروج على الدين فربما كان ذلك الشعر نتيجة خصومة بينه وبين ابن طفيل ، عند اجتماعهما معا فى حاشية الأمير أبى سعيد . وربما كان نتيجة كراهية الموحدين للفلسفة وانقلابهم على الفلاسفة بعد سنة ٥٥٠ هـ (١١٥٥) .

ومن الممكن الاستدلال بالرحلة على تأريخ ما اتصل بأحداثها من شعر ، واغلبه دينى يصور الحج ، وزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومشاهدة الآثار الدينية ، وبقيته شعر يودع فيه الرجل أهله ووطنه ، ويتشوق اليهم فى المواطن والمواسم المتوالية . والشعر الدينى اكثر ما بقى من شعر محمد لما كان عليه من تدين وتصوف .

وأكثر محمد بن جبير من نظم الشعر فى موضوعين آخرين . فقد كان ساخطاً على الزمان حانقاً على الأصدقاء . ولم يرو المؤرخون سببا لذلك ، ولكن الواضح أن الرجل كان ذا ايمان راسخ بأن الوفاء بين الاخوان مفقود ، وأن الركون الى الدنيا اغترار . وبلغ من كثرة

ما نظمه فى هذا الموضوع أن جمعه فى مجلد سماه : « نظم الجمان فى التشكى من اخوان الزمان » . ولم يعثر الدارسون على هذا الديوان ، ولكن المرجح أن المقطوعات التى أوردها المؤرخون له مقتطفة منه .

والموضوع الثانى الذى اكثر من النظم فيه الرثاء . ويبدو انه لم يرث غير زوجته أم المجد عاتكة بنت الوزير أبى جعفر الوقشى ، التى كان يحمل لها اعظم الحب . فماتت بسبتة ، فلم يستطع البقاء بها ، وقام برحلته الثالثة الى المشرق ليتخفف من أعباء حزنه . واخذ — فى تلك الاثناء — يعبر عن لواعج صدره شعراً ، ملأ به ديواناً خاصاً سماه « نتيجة وجد الجوانح فى تأبين القرين الصالح » . فكان أول ديوان — فيما أعلم — افرده شاعر عربى لبكاء زوجته الراحلة . وانتزع بذلك لواء الأولية من شاعرينا المعاصرين عزيز أباظة وعبد الرحمن صدقى ، اللذين ظن بعض الدارسين سبقهما الى هذا الفضل . والأمر الذى يؤسف له أن ذلك الديوان لم يصل الى أيدينا ، بل لم تصل أية قصيدة منه . فلا ندرى الطريق الذى سلكه فى هذا الرثاء .

ولمحمد أشعار اخرى فى الاخوانيات وغيرها من الموضوعات الشعرية التقليدية . وبلغ من مقدار شعره أن قيل انه كان فى ديوان يماثل ديوان أبى تمام فى الكثرة . وربما كان ذلك الديوان لا يضم الديوانين الخاصين السابق

ذكرهما . ولكن الغزارة لا تعني الجودة أو الامتياز . فما بقى من شعره يدل على أنه كان شاعراً وسطاً ، تغلب عليه الصبغة التعليمية ، فان تخلص منها فالى الصبغة التقريرية . وجارى شعراء عصره فى الاعتماد على الجناس ، والتلاعب بالألفاظ ، والاستقاء من مصطلحات العلوم (النحو خاصة) وأبوابها ، والتحبب بالتشبيهات والاستعارات التقليدية التى يرصف بعضها الى جانب بعض لتزويق العبارة لا لما تكسبه للفكرة من جمال أدبى . وكل ذلك كان طابع شعراء عصره ، ولكن انحطاطه ينزوى بعض الانزواء حتى يكاد يختفى عند الشاعر المجيد ، ويبرز حتى يكاد يخفى كل شىء عداه عند الشاعر الوسط . فاذا كان ذلك رأينا فى عصرنا هذا فيه ، فان معاصريه ومن بعدهم يمثل رأيهم فيه ابن الخطيب الذى يقول : « نظمه فائق » ويقول : « شاعر مجيد » ، والمقرى الذى يقول : « تقدم فى صناعة القريض والكتابة » .

« الرحـــــلات »

لم يقم محمد بن جبير برحلة واحدة بل قـــام بثلاث رحلات ، قصد فيها جميعا الحج ، الذى كان مقصد جــل الراحلين من المغرب الى المشرق ان لم يكن كلهم ، والذى وهب الأدب العربى مجموعة من اجمل ما عرف من رحلات، وخاصة اذا اضفنا اليه طلب العلم . ولم يدون محمــد أخبار هذه الرحلات كلها فى كتابه الذى نتحدث عنه ، بل قصره على الرحلة الأولى وحدها .

وذكر المؤرخــون بواعث معينـــة ، أثارت فى نفس الرجل الشوق الى الحج وبعثت فيه العزم على قصده ، ودفعته على القيام برحلاته لأدائه . ونترك الرحلة الأولى الى الثانية ، فنجد المؤرخين يقولون : « لما شاع الخــبر المبهج بفتح المقدس (٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م) على يد السلطان الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن غازى ، قـــوى عزمه على اعمال الرحلـــة الثانية . فتحـــرك اليهـــا من غرناطة يوم الخميس لتسع خلون من ربيـــع الأول ســـنة

خمس وثمانين وخمسمائة (١١٨٩ م) ثم آب الى غرناطة يوم الخميس لثلاث عشرة خلت من شعبان سنة سبع وثمانين (١١٩١ م) » .

واستقر بغرناطة مدة ثم انتقل منها الى مالقة على البحر الأبيض المتوسط ، الى الشمال الشرقى من جبل طارق ، ثم سبته ثم فاس التى انقطع فيهما للتحديث والتصوف . وعندما توفيت زوجته أم المجد قام برحلته الأخيرة الى الحج .

وذكر ابن الرقيق ان الذى دفعه الى رحلته الأولى أن الأمير أبا سعيد استدعاه ليكتب له رسالته فقدم عليه فوجدم فى مجلس شرابه فمد اليه امير يده بكأس . فاظهر الاقباض وقال : « يا سيدى ما شربتها قط » . فقال : « والله لتشربن منها سبعاً » . فلما راى العزيمة اضطر أن يشرب سبع كئوس . فلما فرغ منها ، ملأ له الأمير الكأس من الدنانير سبع مرات وصبها فى حجره . ثم حمله الى منزله . وأراد محمد أن يكفر عن هذا الاثم الذى أرغم على اقترافه ، فرأى انه لا يكفر عنه سوى الحج . فاستأذن الأمير فاذن له . فباع املاكا وضم ثمنها الى ما ناله من الأمير وحج . وذكر ابن الرقيق صراحة أن حجه كان فى تلك السنة التى شرب فيها الخمر .

ولما كان محمد شرع فى رحلته الأولى فى سنة ٥٧٨ هـ (١١٨٢ م) ، وكان الأمير أبو سعيد قد مات فى سنة

٥٧١ هـ (١١٧٥ م) ، فمن المحال اذن أن يكون الحج فى السنة نفسها . بل من المستبعد أن يكون الحج للسبب الذى ذكره ابن الرقيق ، لما بين التاريخين المذكورين من مدة طويلة . أضف الى ذلك أن الرجل نفسه يثنى فى رحلته على تدين الموحدين ثناء كبيراً ويذم غيرهم من الأمراء الذين يصمهم بالبعد عنه ، يقول : « الموحدين انصار الدين ، وحزب الله أولى الحق والصدق ، والذابين عن حرم الله عز وجل ، والغائرين على محارمه ، والجادين فى اعلاء كلمته ، واظهار دعوته ، ونصر ملته ... لا عدل ولا حق ولا دين على وجهه الا عند الموحدين أعزهم الله ، فهم آخر أئمة العدل فى الزمان . وكل من سواهم من الملوك فى هذا الأوان فعلى غير الطريقة » وقد حاولت أن أستخلص من الرحلة نفسها ما يقيم سبباً لها فلم أستطع ، فان ابن جبير سكت عن ذلك سكوتا تاما . وربما لم يكن هناك دافع خاص غير الرغبة فى أداء الفرض الدينى .

الرحلة المدونة

وصرح محمد فى صدر رحلته انه لم يكن وحيداً فيها ، اذ كان أحمد بن حسان القضاعى رفيقاً له وكان أحمد من أندة من مدن مقاطعة بلنسية ، درس الطب واصدر فيه كتاباً مفيداً ، وشارك فى بعض العلوم الأخرى وسمع بدمشق أبا الطاهر الخشوعى مع محمد . وكتب للأمير

أبى سعيد الذى كتب له محمد وغيرهما ، ومات بمراكش فى سنة ٨ أو ٥٩٩ هـ (١٢٠٢ م) ، دون أن يبلغ الخمسين · وبالرغم من هذه الزمالة ، لم يشر اليه محمد فى الرحلة غير ثلاث مرات .

وشرع محمد ورفيقه فى الرحلة بمغادرة غرناطة فى أول ساعة من يوم الخميس ٨ شوال ٥٧٨ هـ (١١٨٣/٢/٣ م) وانهياها بالعودة اليها يوم الخمس ٢٢ محرم ٥٨١ هـ (٢٥ أبريل سنة ١١٨٥ م) فكانت مدتها عامين وثلاثة أشهر ونصفا . قضيا منها فى الأندلس ١٨ يوما وفى المغرب ٣ أيام ، وعلى البحر الأبيض المتوسط شهراً وفى العودة ٣ أشهر ، وفى مصر نحو ٤ أشهر ، وفى البحر الأحمر ٩ أيام ، وفى شبه الجزيرة العربية نحو ١٠ أشهر وفى العراق نحو شهر ونصف ، وفى الشام نحو ثلاثة أشهر ونصف ، وفى صقلية نحو ثلاثة أشهر ونصف .

الموجـــز

ولم يدون محمد مذكراته منذ اليوم الأول للرحـلة أو الاعداد لها ، بل أخذ فى تدوينها وهو علـى البحر ، يوم الجمعة ٣٠ شوال (٢٥ فبراير . ولكنه تلافى ما فاته فسمى المدن التى مر بها ، فأبان أنه خرج من غرناطة الى جيان ثم حصن القبذاق ثم حصن قبرة ثم جزيرة طريف .

فعبر منها مضيق جبل طارق الى قصر مصمودة الذى انتقل منه الى سبتة . واقتصر على ايراد أسماء المدن الأندلسية والمغربية ، ولم يحاول لها وصفاً لانها معروفة لدى مواطنيه الذين كتب لهم المذكرات . واستقل بسبتة مركباً لبعض اهل جنوة ، فاقلع بهم يوم الخمس ٢٩ شــوال (٢٤ فبراير) وهو المبدأ الحقيقى لرحلته ، فكل ما سبق من أماكن كان الأندلسى يتنقل بينها دون أن يشعر باغتراب او رحلة ، ودون أن يرى المؤرخون أنهــم محتاجــون الى تسجيل هذا التنقل .

وسار المركب محاذياً للساحل الأندلسى الى أن قابل دانية فتوغل فى البحر الى جزر يابسة ثم ميورقة ثم منورقة من جزر البليار ثم سردانية . وواجهتهم عاصفة اضلتهم عن سبيلهم وأرجعتهم أدراجهم دون وعى منهم ، الى أن طلع عليهم مركب آخر عرفهم خطأهم . فصححوا وجهتهم حتى بلغوا سردانية ثانية فأرسوا باحدى موانيها . وهبط مسلم يعرف لغة البلاد فشاهد جماعة من أسرى المسلمين معروضين فى السوق للبيع .

وانتقل الرفيقان الى مركب آخر فارق بهم سردانيــة فقابلهم اعصار هائل ، أحدث بالمركب خسائر فادحـــة حتى يئسوا من النجاة . ثم تحسنت الأحوال فظهر لهم ساحل صقلية فأرسوا فيه . ثم أبحروا الى اقريطش الى أن حاذوها تقديراً لاعيانا ، فتوجهوا الى مصر وكان أول

ما قاربوه منها جزائر الحمام . وساروا بحذاء الساحل الى أن أدركوا الاسكندرية . فصعد الى المركب رجال أشبه برجال الجوازات اليوم ، لتسجيل أسماء القادمين ، وصفاتهم ، وبلادهم ، ووجهاتهم ، وما يحملون . وفتش الرجال وأمتعتهم . والتقط رجال الأمن احمد بن حسان منهم ، فسئل عنهم . وقوبلت اقوالهم جميعاً ، لتعلم حقيقة كل منهم . وقد جأر محمد بالشكوى ، وكرر الحديث وأطاله ، عما جرى له بالاسكندرية وغيرها من المدن المصرية ، فى أمثال ذلك التفتيش ، وعما ضاع لبعض الناس من متاع ، وعما أخذ منهم من رسوم سماها زكاة وجرحها على هذا الأساس . ويخيل الى أن كثيراً من مظاهر التعنت فى هذا التفتيش او ما عده محمد تعنتاً انما كان بسبب الظروف غير العادية التى تحيط بالبلاد ، أعنى الحروب الصليبية وما تستتبعه من جواسيس ومخربين تحدث هو نفسه عنهم .

وتعد الاسكندرية اول مدينة فى رحلته ، فان الأماكن السابقة عليها لم يتعرض لها الرجل بغير التسمية . أما هى فأول مدينة طبق عليها المنهج الذى اتبعه فى تدوين رحلته . واستهل حديثه عنها بفقرة عامة فيها اشارات سريعة الى خصائصها من حسن موقعها ، واتساع مبانيها وكبرها ، وانفساح شوارعها ، وضخامة أسواقها ، واختراق المياه جميع ديارها واتصال آبارها . ثم ذكر آثارها القديمة :

المهدم منها كأعمدة الرخام المتخلفة عن مدارسها ، والقائم كالمنار الذى أبان مقاديره ومجاله ومبانيه واثنى عليه كثيراً.
وتحدث عن المدارس والمحارس المشيدة لتعليم الطب خاصة ، والتي يفد اليها الطلبة من جميع الأرجاء فيجدون المأوى والمطعم والحمام والمستشفى (المارستان) الى جانب الدراسة . واشاد بكثرة مساجدها التى أبان مرتبات أئمتها . ثم التفت الى الشعب فكشف عن جدهم حتى انهم يعملون بالليل كما يعملون بالنهار ، وأشار الى رخاء أحوالهم ، وتغنى بسياسة صلاح الدين الأيوبى نحو الغرباء وخاصة المغاربة وكشف عما أنفقه عليهم وخصصه لهم .

وخرج من الاسكندرية ، فقطع اقليم البحيرة ماراً بعاصمته دمنهور . ثم اجتاز فرع رشيد من النيل . ثم اخترق الدلتا فمر ببرمة وطندة (طنطا) وسبك ومليج وقليوب والمنية . ثم اجتاز فرع دمياط عند دجوة التى انتقل عنها الى القاهرة .

ولم يقف عند أية واحدة من هذه المدن ليصفها فى طول . بل اكتفى بمنح كل منها أسطراً قلائل أو سطراً واحداً ، فيه اشارات خاطفة الى الموقع ، أو الاتساع ، أو وجود سور بها أو مسجد أو سوق ويمكن القول انه لم يصف شيئاً منها .

وطال مقامه بالقاهرة فطال حديثه عنها . فمنحنا قائمة بأسماء من يقال ان القرافة (الجبانة) تضمهم من الأنبياء ، وأهل البيت ، والصحابة ، والتابعين ، والأئمة ، والعلماء ، والزهاد ، مع الاحتياط بالتصريح بأنه غير جازم بصحة كل ما رود فيها . وأفاض فى الكلام عن المشهد الحسينى ، فوصف بناءه وجدرانه ورخامه وحجره الأسود ، وأستاره ، وقناديله ، وما ألف الناس أن يؤدوه عند زيارته . والتقط من القائمة مشهد الامام الشافعى ، فأشار الى التأنق فى بنائه ، والعناية به ، وتشييد مدرسة وحمام بازائه . وذكر بعض المساجد، غير انه آثر مسجد أحمد بن طولون بالعناية ، لكونه مأوى للمغاربة فى ذلك الوقت .

وأولى المارستان قسطا كبيرا من اهتمامه ، فوصف بناءه واقسامه تبعاً لجنس المرضى والأمراض ، وادارته وما يؤديه من خدمات ، وكيف يقوم بها .

وتكلم عن المبانى التى شيدها صلاح الدين بسبب الحروب الصليبية كالقلعة والقناطر التى أقامها على النيل لتيسر الاتصال بين القاهرة والاسكندرية فى حالات الطوارىء ، وعن تسخيره الأسرى من الصليبيين فيها وتنزهه عن تسخير رعيته .

وقاده كل ذلك الى الحديث عن صلاح الدين ، فأفاض فى مدحه والاشادة بمناقبه . فكشف فى اثناء ذلك عن سياسته تجاه المغاربة الذين أسكنهم فى الجبانة ومسجد ابن طولون ، والمرتبات التي خصصها للقائمين بشئون المساجد ، والأموال التي أنفقها على المدارس ، ومدارس الأيتام خاصة ، وعلى الأضرحة ، والغائه الرسوم التى كانت مفروضة على الحجاج .

وصور خطبة الجمعة ، ومنهج الخطيب فى الدعاء ، والوعظ ، واللباس ، وارتقاء المنبر ، ولفت الأنظار لتلقى خطبته .

وزار فى تلك الأثناء جزيرة الروضة والجيزة ، فوصفهما وصفاً مجملا ، أشار فيه الى كون الأولى متنزه أهل القاهرة ، والى اتساع الثانية وأسواقها التى تقام كل يوم أحد . وعنى فى الأولى بمقياسها ، فوصفه وأبان عمله ، وفى الثانية بالأهرام وأبى الهول فأبان شكلها ومقاييسها وردد بعض الأساطير التى كانت شائعة عنها فى ذلك الحين .

ثم غادر محمد القاهرة الى قوص بالصعيد الأعلى ، متخذا من النيل طريقا له ، ليبعد عن طريق سيناء وفلسطين المحفوف بالأخطار بسبب الصليبيين . فمر بمدن الصعيد التى منح كلا من كبرياتها أسطراً قليلة وصفها فيها وصفاً عاماً يشير الى موقعها ، ومرافقها ، وأسواقها ، وحماماتها،

ومساجدها ، وكنائسها ، ومعابدها ، ومحاصيلها ، وسورها . والتفت الى شدة تحجب نساء قنا ودشنا والتزامهن البيوت ، وأطال فى وصف معبد اخميم الفرعونى، فأبان مقاييسه ، وعدد أعمدته وشكلها ، ورسومه ، وألوانه ، وحجراته ، وسلالمه . وأعاد الكلام عن الموظفين القائمين بتفتيش الحجاج ، الآخذين الضرائب منهم ، وصب عليهم سخطه . واستطرد الى حادث تاريخى معروف ، وفحواه أن جماعة من الصليبيين شيدت مراكب نقلتها من الشام الى البحر الأحمر على ظهور الجمال ثم أنزلتها فى البحر . وعاثت فيه فساداً ، بل أرادت ان تهاجم الأراضى المقدسة ، واشاعت أنها عازمة على غزو المدينة والعبث بقبر الرسول صلى الله عليه وسلم لولا أن قضى عليهم الأسطول المصرى .

ومن قوص سلك احد دروب الصحراء الشرقية ، فوصفه أدق وصف ، سرد فيه اسماء محطاته ومياهه ، والأنواع التى تستطيع أن تخترقه من الابل ، والتى تصلح له من الرحال ، والبضائع التى ترد وتصدر منه بسبب الحروب الصليبية الى أن بلغ عيذاب على البحر . وأفاض الرجل فى تصوير هذا الميناء الذى كان من أهم موانىء مصر فىذلك الوقت ، وهو بلدة صغيرة ضئيلة الآن على الحدود المصرية السودانية . فرسم عدة صور لها ، ولمنازلها ، ولأهلها واعمالهم وجيرانهم من البجاة ، وأخلاقهم ، ومراكبهم الغريبة التى يقطعون بها البحر الاحمر . والحق

أن عيذاب من المدن التى أكثر من العناية بها ، وان كان منحها أسوأ الرسوم لكراهيته اياها .

وأقلع من عيذاب ، فوصف طريقه فى البحر ، وما واجهه من أخطار العواصف ، والجزر والشعب المرجانية ، وبراعة الربان فى التصرف بينها ، حتى هبط جدة ، فوصف مساكنها وآثارها ومساجدها ، وأهلها الطالبين وسوء أحوالهم ثم خرج منها فى قافلة الحجاج ، فأدرك مكة فكان أول ما فعل دخول الكعبة والطواف حولها والصلاة ، والشرب من زمزم وحلق الرأس للاحلال من عمرته .

واستهل محمد حديثه عن مكة بمعالجة المسجد الحرام فأفاض فى الحديث عنه ورسم له الصور من جميع الأنحاء معتنيا بأدق التفاصيل ، فأبان مقاييسه ، وأركانه ، وارضه، وجدرانه وأعمدته ، وأستاره وصوامعه ، ومنبره ، ووصف الكعبة من الخارج والداخل ، وسمى المشاهد المتنوعة فيه كالملتزم ومقام ابراهيم وقبة اسماعيل وموقع كل منها وشكله وما يضمه من أشياء . ثم التفت الى مكة وتحدث عن أبوابها وجبالها وفضل كل منها ومساجدها ، ودور كبار الصحابة بها ، والمباني المقامة على المواضع المذكورة

فى الأحداث الاسلامية . وأثنى على مكة ، واشاد بفضلها وما خصها الله به من البركات والنعم والثمار . وتغنى بمن عنوا بالبلدة والمواقع الاسلامية فحافظوا عليها ، ورعوها ويسروا السبيل الى زيارتها .

ورسم عدة صور للجتمع المكى فى مواسمه المختلفة فقد وصف الشعائر التى اعتاد أهل مكة أن يؤدوها عند فتح باب الكعبة ، وخطبة الجمعة ، واستقبال الهلال الوليد ، وصلوات الأئمة المختلفين للفريضة الواحدة فى المسجد الحرام ، واحتفالهم بالعمرة فى أول شهر رجب ومنتصفه ، وبعمرة النساء فى آخره ، وبليلة نصف شعبان ، وصلوات التراويح من ليالى رمضان وختم القرآن فى الليالى الفردية من أيامه العشرة الأخيرة وليلة القدر والعيد ، ومجالس الوعظ . فأعطانا ادق الصور وأشملها للمسجد الحرام ، ولمكة ، وللمجتمع المكى . فقد كانت مكة المدينة التى نالت النصيب الأعظم من اقامته ووصفه . كذلك وصف قدوم بعض الزوار والحجاج كالسرو اليمنيين ، وما كانوا عليه من جفاء وفصاحة وايمان ، والأمير سيف الاسلام طغتكين ، وما كان عليه من وجاهة ، والأعاجم وما كانوا عليه من حماس دينى .

ووصف المواضع الدينية المحيطة بمكة ، وخاصة على الطريق بينها وبين منى ، وما يؤديه الحاج عندها من شعائر وصور محلة أمير الحج العراقى الذى قرر محمد أن ينضم اليه فى العودة .

ولما فرغ من شعائر الحج ، غادر مكة الى المدينة . فسرد أسماء البقاع التى مر بها ، وأبان مواقعها ومياهها وثمارها وحصونها فى اختصار شديد . ووصف ركب الحجاج الذين سافر معهم ، وخاصة بنات الملوك الثلاث اللائى كن معهم وألوان ترفهن وبرهن .

ولم يطل المقام بالمدينة فأوجز تناولها ووجه أكثره الى وصف مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم فوصف مقاييسه وأقسامه وعمده وأبوابه وزخرفته . وأشار الى بعض المساجد الأخرى ، ودور كبار الصاحبة ، وأبواب المدينة وآبارها ، وبعض آثارها الاسلامية الهامة ، وخاصة فى مقبرتها بالبقيع . واطنب فى الكلام عن مجلس للوعظ عقد فى المسجد النبوى . فأعطى صورة حية لكل ما جرى فيه . وتعرض لوصف خطبة الجمعة فى الحرم النبوى موجزا .

وعاود السير مع الركب الى العراق ، فعاود وصف طريقه على النهج الذى اتبعه قبل أن يبلغ المدينة وكانت أول مدن العراق الكبيرة التى دخلها الكوفة ثم الحلة

ثم بغداد ثم تكريت ثم الموصل ثم نصيبين ثم دنيصر ثم رأس العين ثم حران . وسلك فى وصف هذه المدن مسلكا متقاربا ، لا يختلف عما رأيناه فى وصفه للمدن السابقة ، فكان يصدر حديثه بفقرة مسجوعة يبين فيها موقع المدينة ، ومنظرها ، وفضلها ، ثم يتحدث عن مشاهدها ومبانيها ومرافقها . وأفاض فى بغداد فى وصف مجالس الوعظ التى شهدها وأعجب بها وأورد بعض المعلومات عن الخلافة العباسية والخلفاء . ولكنه قسا على أهل بغداد فذمهم لعدم اكرامهم اياه فى الغالب .

وانتقل الى الشام فمر بمنبج وحلب وقنسرين والمعرة وحماة وحمص ودمشق . وجرى على سننه فى وصفها غير دمشق . فقد أولع بها فأفاض فى الحديث عنها أكثر من أية مدينة أخرى سوى مكة . وأعظم ما عنى به فيها مسجدها الأموى الذى أعطاه من الصور قريباً مما أعطاه الحرم المكى . وتحدث عن مرافق دمشق وأحيائها وضواحيها ومشاهدها . وأطال فى الكلام عن أخلاق أهل دمشق ، وتقاليدهم فى جنائزهم وملابسهم ومشيهم ومجاملاتهم ، وعن مجالس العلم بالمسجد الأموى ، والفرق الاسلامية المختلفة ، والعلاقات الحربية والسلمية بين المسلمين والنصارى . وأشار الى بعض المواقع الحربية ، وخاصة استرداد نابلس .

وخرج من دمشق فعبر ببانياس ، واستقر بعكة ، وألم بصور . فوصف هذه المدن مجملا ، وذكر ما أخذه الصليبيون منه من رسوم ليدخل المنطقة الصليبية ، وما رآه من أحوال المسلمين تحت حكم الصليبيين ، وما سمعه عن ملوك الأخيرين ، وحفلة زواج لأحدهم .

ثم امتطى مركباً جنوياً متجهاً الى الأندلس ، ولكن الرياح والعواصف المتوالية لازمته فتلاعبت به تسير به فى طريقه مرة وتتنكب أخرى بل ترجع به عوداً على بدء . فأخذ يتردد فى القسم الشرقى من البحر الأبيض المتوسط بين أرخبيل اليونان وجزيزتى اقريطش وصقلية الى أن تحطم المركب على صخور الأخيرة ، فاضطر الى الهبوط فى مسينة . واخذ مركباً آخر سار به الى شفلودى ثم ثرمة . ثم اضطر أن يهبط الى البر ويسير فيه الى أن بلغ بلارمة ثم اطرابنش . ووصف محمد هذه المدن وصفاً مجملا ، مبينا موقعها ومزاياها ، ولكن أكثر عنايته كانت بالحديث عن المسلمين فى صقلية ، وعلاقاتهم بالمسيحيين ، وتأثر هؤلاء وعلى راسهم الملك وليم بهم ، واتخاذه الجند والأعوان وكبار الموظفين منهم .

ثم امتطى مركباً آخر سار به الى جزيرة الراهب ثم تلاعبت به الرياح ثانية . وأخيراً ادرك قرطاجنة من أرض الأندلس ، فهبط بها الى غرناطة ، فانتهى به المطاف والقى عصاه بمنزله .

مر اذن محمد بن جبيـــر فى رحـــلته بمصر ، وشبه الجزيرة العربية ، والعراق ، والشام ، وصقلية ، وشاهد كبريات مدنها . فصورها فى كتابه تصويراً يتفاوت طـــولا وقصراً وفقا للمدة التى اقامها بها ، والانطباع الذى خلفته فى نفسه ، والأهمية التى راى أنها تستحقـــها . ومـــن المستطاع أن نستخلص أنه كان يعنى فى وصف المـــدن بثلاث نواح: المرافق ، والمشاهد ، والأرباض . وتضـــم المرافق فى خلده : الأسوار ، والحصون ، والمســـاجد ، والمدارس ، والحمامـــات ، والميـــاه والأســـواق ، والمارستانات ، والمنازل ، والشوارع ، والأبواب ، وتضم المشاهد المقابر ،والموالد ، وآثار الأنبياء والعلماء والأولياء والمواقع الاسلامية ، والمعـــابد والكنـــائس والآثار غير الاسلامية . وتضم الأرباض الأحياء والضواحى . ولست أعنى أنه وصف كل ذلك فى كل مدينة ، بل أنها هى ما يتعرض له عند وصفها فيأتى بأكثرها تارة ويهمله أخرى . وعنى فى الكتاب كله بالغرباء ، ومواطنيه المغاربة خاصة : كيف يعاملهم حكام الأقطار التى مر بها وشعوبها ، فيشيـــد بصاحب الفضل عليهم ويعدد ألوان بره بهم ، وينبذ مـــن يجفوهم ، ويتغنى بأفضال صلاح الدين الأيوبى الحربية والسلمية ، وينتهز كل فرصة للثناء عليه . ثم ينفرد علاجه لكل اقليم بنواح خاصة تغلب عليه ، ربمـــا كان سببهـــا طبيعته ولون الحياة فيه . فأكثر ما تحدث عنه فى مصر

المشاهد والآثار ، وفى الحجاز الشعائر والمواسم والاحتفالات الدينية ، وفى العراق الوعظ والوعاظ ، وفى الشام المسجد الأموى والجوانب السياسية والحربية والاقتصادية من الحياة بين المسلمين والصليبيين وحياة الدمشقيين الاجتماعية ، وفى صقلية احوال المسلمين ومشاعرهم تحت حكم الملك غليسوم (وليم الصالح) وسياسته نحوهم . ويدل هذا على ما للكتاب من قيمة كبيرة فى الدراسات المختلفة .

الاسلوب

ويصور الكتاب صاحبه رجلا طيب القلب ، سليم الطوية ، يسرع الى الالتجاء الى الله فى حال الرضا والغضب ، والاعجاب والاستنكار ، والاطمئنان والفزع . وقد يؤثر ذلك فى أحكامه ، فيفرط فى شعوره ، فكل ما يعجب به غاية لا يستطيع وصفها الواصفون . ولكن هذا لا يفقده قدرته على التمييز ، وتمحيص الشائعات ، ولو اتصلت بأمر دينى ، بل يحاول التحقق .

وكان محمد بن جبير يدون مشاهداته على صورة مذكرات لا كتاب متصل مطرد . ثم نسق هذه المذكرات وفقاً لمراحل الرحلة هو او بعض تلاميذه كما يقول أبو الحسن الشارى . فاثر ذلك فى عبارته تاثيراً كبيراً .

فهى قريبة من العامية ، تتضمن من الألفاظ ما لا ترضى عنها اللغة الفصيحة . والضمائر مختلة لا تسير وفقاً للقواعد العربية ، بل على القواعد العامية ، وخاصة فى المثنى الذى يعامل كالمؤنث فى اغلب المواضع . والجمل منفصلة لا ترابط بينها فى كثير من الأحيان ، على غير مألوف اللغة الفصيحة . وبالرغم من ذلك ، يفتتح الكلام عن المدن الهامة بفقرة مجودة تتزين بالسجع والجناس . واذا كان القدماء اعجبوا بفقراته المجودة فان الذوق الحديث أكثر اعجابا بعباراته المرسلة لسهولتها وطبيعتها وجمالها غير المتكلف ولا المصنوع .

فى التراث الانسانى

ولما كان محمد بن جبير دقيق الملاحظة ، صادق التعبير ، متنوع الالتفات ، وكان العصر الذى قام فيه برحلته ، عصر الحروب الصليبية ، عظيم الأهمية لدى الشرقيين والغربيين ، والمسلمين والمسيحيين . فقد لفتت رحلته الأنظار منذ صدورها . وجذبت القراء ، ومنحت الدارسين فى النواحى المختلفة ما يسعون وراءه من معلومات . فكثر الحديث عنها ، وكثر الأخذ منها وعظمت العناية بها .

فالمقــرى المغربى نوه بانتشارها بين القراء فى عصره البعيد فقال عن الرجل : « له رحلة مشهورة بأيــدى الناس » .

وابن الخطيب الأنــدلسى قال : « رحلته نسيجــة وحدها طارت كل مطار » . وقـــال : « صنف الرحلـــة المشهورة ... وهو كتاب مؤنس ممتع مثير سواكن الأنفس الى تلك المعالم » .

وفى العصر الحاضر ، قال نفيس أحــمد الهنــدى : « لقى الكتاب قبولا حسنــا فى الشرق وفى الغــرب على السواء ... وان مــا كتبــه ابن جبير فى رحلته ليلقى ضوءاً هاماً على الوضع الجغرافى والنشــاط الثقــافى والتجارى للأوضاع الاســلامية من بلدان حوض البحــر الأبيض المتوسط » .

وقال الدكتور نقولا زيادة اللبنانى : « عنى كاتبهــا بالرسوم الدينية والنواحى الاجتماعية عناية فائقة ... وهو فى كل هذا دقيق الملاحظة ، سوى العبارة ، واضح الأسلوب . وقد أثر ابن جبير فى كثير من الكتاب الذين جاءوا بعده » .

وقال الدكتور محمد زغلول ســلام المصرى ... « تعد درة من درر أدب الأسفار والرحلات ... بل انه يمتاز فيها بملكة لاقطة مصورة » .

وقالت دائرة المعارف الاسلامية ، معبرة عن راى المستشرقين فيها : « تعد قصة رحلته من أهم مؤلفات العرب ، وخاصة فى تاريخ صقلية فى عهد وليم الصالح » .

واشاد بونس بويجس Pons Boigues بها ، وعد حديث ابن جبير عن الآثار ، وصقلية ، عظيم الأهمية ، وخاصة لاهمال المؤرخين معالجة أحوال المسلمين فى العهد النورمندى بالجزيرة وتفاهة ما كتبوه عنهم ونوه بأسلوب الرحالة ، واعجب بوصفه للمواصف ورأى أن ما رسمه لها من صور جدير بالنقل والترجمة لصدقه وحيويته وجماله .

وأجمع كل من كتب عن الرحلة على أن المتأخرين اكثروا من الرجوع اليها والاقتباس منها . فاقتبس العبدرى فى رحلته منها فى وصف مكة والمدينة ، وخالد بن عيسى البلوى فى رحلته « تاج المفرق فى تحلية علماء المشرق » فى وصف الاسكندرية والقاهرة ومكة والمدينة خاصة ، وابن بطوطة فى رحلته فى وصف حلب ودمشق خاصة ، والمقريزى فى خططه وسلوكه فى وصف اخميم وعيذاب خاصة ، والفاسى فى كتابه : « شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام » فى كلامه عن الرسوم المفروضة على الحجاج فى عيذاب خاصة ، والمقرى فى « نفح الطيب » فى وصف دمشق خاصة ، والشريشى فى شرحه لمقامات

الحريرى فى مواضع كثيـرة . وزاد نفيس احـمد الى المستفيدين من رحلة ابن جبير لسان الدين بن الخطيب .

كل هـذه العـوامل جعلت المستشرقين ايضـا والايطاليين منهم خاصة يوجهون عنايتهم الي نص الرحلة ذاته . فتلقف وليم رايت William Wright النسخة الوحيدة الموجودة منها ، وحققها ، ونشرها فى ليدن سنة ١٨٥٢ م . ثم راجع المحقق نفسه ما طبعه واشترك فى تصحيحه جماعـة من كبـار المستشرقين هـم دوزى Dozy وروبرتسون سميث Robertson Smith ودى غويه De Goeje ، واعادوا نشرها بليدن عـام ١٩٠٧ فى مجموعة تحمل اسم جب .

وحقق المستشرق الايطالى امارى Amari القسم الخاص بصقلية من الرحلة ، ونشره مع ترجمـة فرنسية له فى المجلة الآسيوية Journal Asiatique المجموعة الرابعة المجلد السادس ، صفحة ٥٠٧ ، والمجلد السابع صفحة ٧٣ و ٢٠١ . وعلق الشيخ طنطاوى على ما فعل فى المجلد التاسع ، صفحـة ٣٥١ من المجلـة نفسها .

واعتمد على الرحلة المستشرق كرولا Crolle فى بحثه عن صقلية فى العهـد النورمنـدى المسمى La Sicle au XIIs s.a récit du voyage de I, J. en l'an 581 de l'h. (1187), trad. de l'ar. Muséon VI, 123/32.

وتوج الايطاليون عنايتهم بالرحلة بأن قام كلستينو شيابرلى Celestino Schiaparelli بترجمة للنص برمته ، ونشره فى روما فى سنة ١٩٠٦ م ، تحت عنوان :

Ibn Gubayr (Giobeir) Viaggio in Ispagna, Sicilia, Siria, Palestina, Mesopotemia, Arabia, Egitto, commito nel secolo XII.

الشواهد

معبد اخميم من مدن مصر

من أعظم الهياكل المتحدث بغرائبها فى الدنيا هيكل عظيم فى شرقى المدينة المذكورة وتحت سورها طوله مائتا ذراع وعشرون ذراعا . وسعته مائة وستون ذراعاً . يعرف عند أهل هذه الجهة بالبربا ، وكذلك يعرف كل هيكل عندهم وكل مصنع قديم . قد قام هذا الهيكل العظيم على أربعين سارية حاشا حيطانه ، دور كل سارية منها خمسون شبرا ، وبين كل سارية وسارية ثلاثون شبراً . ورءوسها فى نهاية من العظم

والاتقان ، قد نحتت نحتا غريباً ، فجاءت مركنة بديعة الشكل ، كأن الخراطين تناولوها وهى كلها مرقشة بأنواع الأصبغة اللازوردية وسواها ، والسوارى كلها منقوشة من أسفلها الى أعلاها . وقد انتصب على راس كل سارية منها الى راس صاحبتها التى تليها ، لوح عظيم من الحجر المنحوت ، من أعظمها ما كلنا فيه ستة وخمسين شبرا طولا ، وعشرة أشبار عرضاً ، وثمانية أشبار ارتفاعا . سقف هذا الهيكل كله من ألواح الحجارة المنتظمة ببديع الالصاق ، فجاءت كأنها فرش واحد . وقد انتظمت جميعه التصاوير البديعة والأصبغة الغريبة ، حتى يخيل للناظر فيها أنها سقف من الخشب المنقوش . والتصاوير على أنواع فى كل بلاط من بلاطاته فمنها ما قد جللته طيور بصور رائقة ، باسطة أجنحتها ، توهم الناظر اليها انها تهم بالطيران ، ومنها ما قد جللته تصاوير آدمية رائقة المنظر رائعة الشكل . قد أعدت لكل صورة منها هيئة هى عليها ، كامساك تمثال بيدها أو سلاح أو طائر أو كأس ، أو اشارة شخص الى آخر بيده ، أو غير ذلك مما يطول الوصف له ولا تتأتى العبارة لاستيفائه . وداخل هذا الهيكل العظيم وخارجه ، وأعلاه

وأسفله ، تصاوير كلها مختلفات الأشكال والصفة ، منها تصاوير هائلة المنظر ، خارجة عن صور الآدميين ، يستشعر الناظر اليها رعباً ، ويتملأ منها عبرة وتعجبا . وما فيه مفرز اشفى ولا ابرة الا وفيه صورة أو نقش أو خط بالمسند لا يفهم . قد عم الهيكل العظيم الشأن كله ، هذا النقش البديع . ويتأتى فى صم الحجارة من ذلك ما لا يتأتى فى الرخو من الخشب . فيحسب الناظر استعظاما له ، أن عمر الزمان لو شغل بترقيشه وترصيعه وتزيينه لضاق عنه . فسبحان الموجد للعجائب لا اله سواه . وعلى أعلى هذا الهيكل سطح مفروش بألواح الحجارة العظيمة على الصفة المذكورة ، وهو فى نهاية الارتفاع ، فيحار الوهم فيها ، ويضل العقل فى الفكرة فى تطليعها ووضعها .. وداخل هذا الهيكل من المجالس والزوايا ، والمداخل والمخارج ، والمصاعد والمعارج ، والمسارب والموالج ، ما تضل فيه الجماعات من الناس ، ولا يهتدى بعضهم لبعض الا بالنداء العالى وعرض حائطه ثمانية عشر شبرا . وهو كله من حجارة مرصوصة على الصفة التى ذكرناها . وبالجملة فشأن هذا الهيكل عظيم ، ومرآه احدى عجائب الدنيا التى

لا يبلغها الوصف ، ولا ينتهى اليها الحد ، وانما وقع الالمام بنبذة من وصفه دلالة عليه ، والله المحيط بالعلم فيه ، والخبير بالمعنى الذى وضع له ، فلا يظن المتصفح لهذا المكتوب أن فى الاخبار عنه بعض غلو فان كل مخبر عنه — لو كان قسا بيانا او سحبانا — يقف موقف العجز والتقصير والله المحيط بكل شىء علما ، لا اله سواه .

صلاة الجمعة بالمسجد الحرام بمكة

وبازاء المقام الكريم منبر الخطيب ، وهو ايضا على بكرات أربع شبه التى ذكرناها . فاذا كان يوم الجمعة وقرب وقت الصلاة ، ضم الى صفح الكعبة الذى يقابل المقام ، وهو بين الركن الأسود والعراقى فيسند المنبر اليه . ثم يقبل الخطيب داخلا على باب النبى صلى الله عليه وسلم وهو يقابل المقام فى البلاط الآخذ من الشرق الى الشمال ، لابساً ثوب سواد مرسوماً ايضاً وعليه طيلسان شرب رقيق ، كل ذلك من كسا الخليفة التى يرسلها الى خطباء بلاده ، يرفل

فيها وعليه السكينة والوقار ، يتهادى رويداً بين رايتين سوداوين يمسكهما رجلان من قومة المؤذنين ، وبين يديه ساعياً أحد القومة ، وفى يده عـــود مخروط أحمر ، قد ربط فى رأسه مرس من الأديم المفتول رقيق طويل ، فى طرفه عذبة صغيرة ينفضها بيده فى الهواء نفضاً ، فتأتى بصوت عال يسمع من داخل الحرم وخارجه كأنه ايذان بوصول الخطيب ، ولا يزال فى نفضها الى أن يقرب من المنبر ، ويسمونها الفرقعة . فاذا قرب من المنبر ، عرج الى الحجر الأسود فقبله ، ودعا عنده ، ثم سعى الى المنبر والمؤذن الزمزمى ، رئيس المؤذنين بالحرم الشريف، ساع أمامه ، لابساً ثياب السواد أيضاً ، وعلى عاتقــه السيف يمسكه بيده دون تقلد له . فعند صعوده فى أول درجة قلده المؤذن المذكور السيف . ثم ضرب بنعلـــة سيفه فيها ضربة أسمع بها الحاضرين ، ثم فى الثانية ، ثم فى الثالثة . فاذا انتهى الى الدرجة العليا ضرب ضربة رابعة ، ووقف داعيا مستقبل الكعبة بدعاء خفى . ثم انفتل عن يمينه وشماله قال : « السلام عليكم ورحمـــة الله وبركاته » . فيرد الناس عليه السلام . ثم يقعـــد ويبادر المؤذنون بين يديه فى المنبر بالأذان ، على لســـان

واحد . فاذا فرغوا قام للخطبة ، فذكر ووعظ وخشع فابلغ . ثم جلس الجلسة الخطيبية ، وضرب بالسيف ضربة خامسة . ثم قام للخطبة الثانية فأكثر بالصلاة على محمد صلى الله عليه وسلم ، وعلى آلـه ، ورضى عن أصحابه ، واختص الأربعة الخلفاء بالتسمية رضى الله عن جميعهم ، ودعا لعمى النبى صلى الله عليه وسلم حمزة والعباس ، وللحسن والحسين ، ووالى الترضى عن جميعهم . ثم دعا لأمهات المؤمنين زوجات النبى صلى الله عليه وسلم ، ورضى عن فاطمة الزهراء ، وعن خديجة الكبرى ، بهذا اللفظ . ثم دعا للخليفة العباسى أبى العباس احمد الناصر ، ثم لأمير مكة مكثر بن عيسى بن فليتة بن قاسم بن محمد بن جعفر بن أبى هاشم الحسنى ، ثم لصلاح الدين أبى المظفر يوسف بن أيوب ، ولولى عهده اخيه أبى بكر بن أيوب . وعند ذكر صلاح الدين بالدعاء ، تخفق الألسنة بالتأمين عليه من كل مكان .

واذ أحب الله يوماً عبده

القى عليه محبة للناس

وحق ذلك عليهم بما يبذله من جميل الاعتناء بهم ، وحسن النظر لهم ، ولما رفعه من وظائف المكوس عنهم .

مجلس وعظ فى بغداد

ثم شاهدنا صبيحة يوم السبت بعده مجلس الشيخ الفقيه ، الامام الأوحد ، جمال الدين أبى الفضائل بن على الجوزى ، بازاء داره على الشط ، بالجانب الشرقى وفى آخره ، على اتصال من قصور الخليفة ، وبمقربة من باب البصلية آخر أبواب الجانب الشرقى ، وهو يجلس به كل يوم سبت فشاهدنا مجلس رجل ليس من عمرو ولا زيد ، وفى جوف الفرا كل الصيد ، آية الزمان ، وقرة عين الايمان ، رئيس الحنبلية ، والمخصوص فى العلوم بالرتب العلية ، امام الجماعة ، وفارس حلبة هذه الصناعة ، المشهود له بالسبق الكريم فى البلاغة والبراعة ، مالك أزمة الكلام فى النظم والنثر ، والغائص فى بحر فكره على نفائس الدر . فأما نظمه فرضى الطباع ، مهيارى الانطباع . وأما نثره فيصدع بسحر البيان ، ويعطل المثل بقس

وسحبان . ومن أبهر آياته ، وأكبر معجزاته ، أنه يصعد المنبر ، ويبتدىء القراء بالقرآن ، وعـــددهم نيف على العشرين قارئاً ، فينتزع الاثنان منهم أو الثلاثة آية من القرآن ، يتلونها على نسق بتطريب وتشـويــق . فاذا فرغوا ، تلت طائفة أخـــرى على عـــددهم آية ثانية ، ولا يزالون يتناوبون آيات من سور مختلفـــات ، الى أن يتكاملوا قراءة ، وقد أتوا بآيات مشتبهـــات ، لا يكـــاد المتقد الخاطر يحصلها عدداً ، أو يسميها نسقاً . فاذا فرغوا ، أخذ هذا الامام الغريب الشأن فى ايراد خطبته ، عجلا مبتدراً ، وافرغ فى أصداف الأسماع من ألفاظـــه درراً ، وانتظم أوائل الآيات المقروءات فى أثناء خطبته فقراً ، وأتى بها على نسق القراءة لهـــا ، لا مقدمـــاً ولا مؤخراً . ثم أكمل الخطبة على قافية آخر آية منها . فلو أن أبدع من فى مجلسه تكلف تسمية ما قرأ القراء آية آية على الترتيب ، لعجز عن ذلك فكيف بمن ينتظمهـــا مرتجلا ، ويورد الخطبة الغراء بها عجلا ، افسحر هذا أم أنتم لا تبصرون ؟ ان هذا لهو الفضل المبين . فحـــدث ولا حرج عن البحـــر . وهيهـــات ، ليس الخبر عنه كالخبر ! ثم انه أتى بعد أن فرغ من خطبته برقائق من

الوعظ ، وآيات بينات من الذكر ، طارت لها القلوب اشتياقاً ، وذابت بها الأنفس احتراقاً ، الى أن علا الضجيج ، وتردد بشهقاته النشيج . وأعلن التائبون بالصياح ، وتساقطوا عليه تساقط الفراش على المصباح ، كل يلقى ناصيته بيده فيجزها ، ويمسح على راسه داعياً له ، ومنهم من يغشى عليه ، فيرفع فى الأذرع اليه . فشاهدنا هولا يملأ النفوس انابة وندامة ، ويذكرها هول يوم القيامة ، فلو لم نركب ثبج البحر ، ونعتسف مفازات القفر ، الا لمشاهدة مجلس من مجالس هذا الرجل ، لكانت الصفقة الرابحة ، والوجهة المفلحة الناجحة . والحمد لله على أن من بلقاء من يشهد الجمادات بفضله ، ويضيق الوجود عن مثله . وفى أثناء مجلسه ذلك يبتدرون المسائل ، وتطير اليه الرقاع ، فيجاوب أسرع من طرفة عين . وربما كان أكثر مجلسه الرائق من نتائج تلك المسائل ، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، لا اله سواه .

ساعة المسجد الأموى بدمشق

ومن يمين الخارج من باب جيرون ، فى جدار البلاط الذى أمامه ، غرفة ولها هيئة طاق كبير مستدير فيه طيقان صفر قد فتحت أبواباً صفاراً على عدد ساعات النهار ، ودبرت تدبيراً هندسياً . فعند انقضاء ساعة من النهار تسقط صنجتان من صفر ، من فمى بازيين مصورين من صفر ، قائين على طاستين من صفر تحت كل واحد منهما : أحدهما تحت أول باب من تلك الأبواب ، والثانى تحت آخرها ، والطاستان مثقوبتان فعند وقوع البندقتين فيهما ، تعودان داخل الجدار الى الغرفة ، وتبصر البازيين يمدان أعناقهما بالبندقتين الى الطاستين ، ويقذفانها بسرعة بتدبير عجيب تتخيله الأوهام سحراً . وعند وقوع البندقتين فى الطاستين ، يسمع لهما دوى ، وينغلق الباب الذى هو لتلك الساعة للحين بلوح من الصفر ، لا يزال كذلك عند كل انقضاء ساعة من النهار ، حتى تنغلق الأبواب كلها وتنقضى الساعات ، ثم تعود الى حالها الأول . ولها بالليل تدبير آخر ، وذلك أن فى القوس المنعطف على تلك الطيقان المذكورة اثنتى عشرة دائرة من النحاس مخرمة وتعترض

فى كل دائرة زجاجة من داخل الجدار فى الغرفة ، مدبر ذلك كله منها خلف الطيقات المذكورة وخلف الزجاجة مصباح يدور به الماء على ترتيب مقدار الساعة فاذا انقضت ، عم الزجاجة ضوء المصباح ، وفاض على الدائرة أمامها شعاعها ، فلاحت للأبصار دائرة محمرة . ثم انتقل ذلك الى الأخرى حتى تنقضى ساعات الليل ، وتحمر الدوائر كلها ، وقد وكل بها فى الغرفة متفقدا لحالها ، درب بشأنها وانتقالها ، يعيد فتح الأبواب وصرف الصنج الى موضعها . وهى التى يسميها الناس المنجانة .

الحمد لله رب العالمين

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٥٨٩٦/١٩٩٦

ISBN — 977 — 01 — 4822 — 9

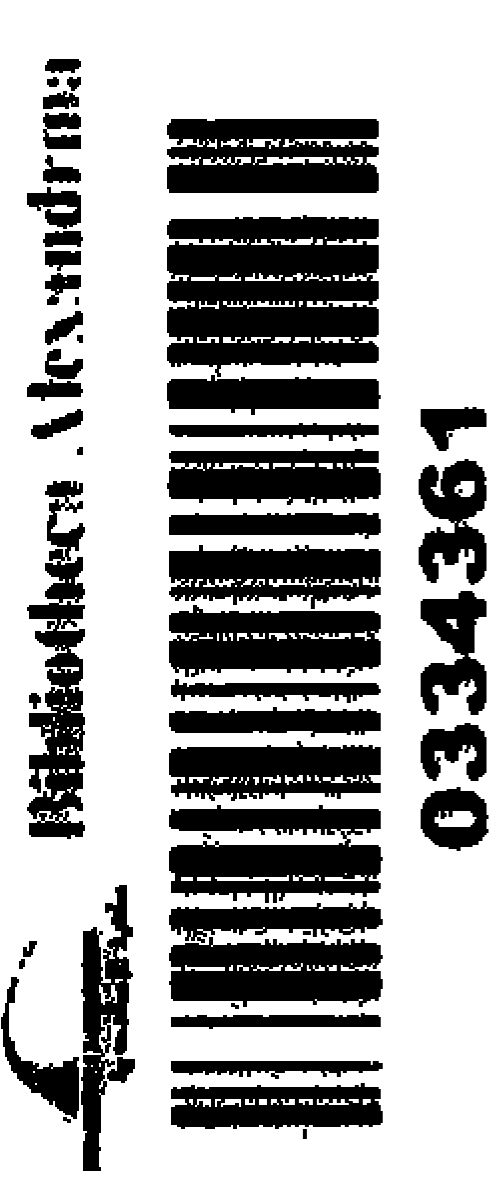
مكتبة الأسرة



بسعر رمزي خمسون قرشا

بمناسبة

مهرجان القراءة للجميع 1996



مطابع
الهيئة المصرية
العامة للكتاب